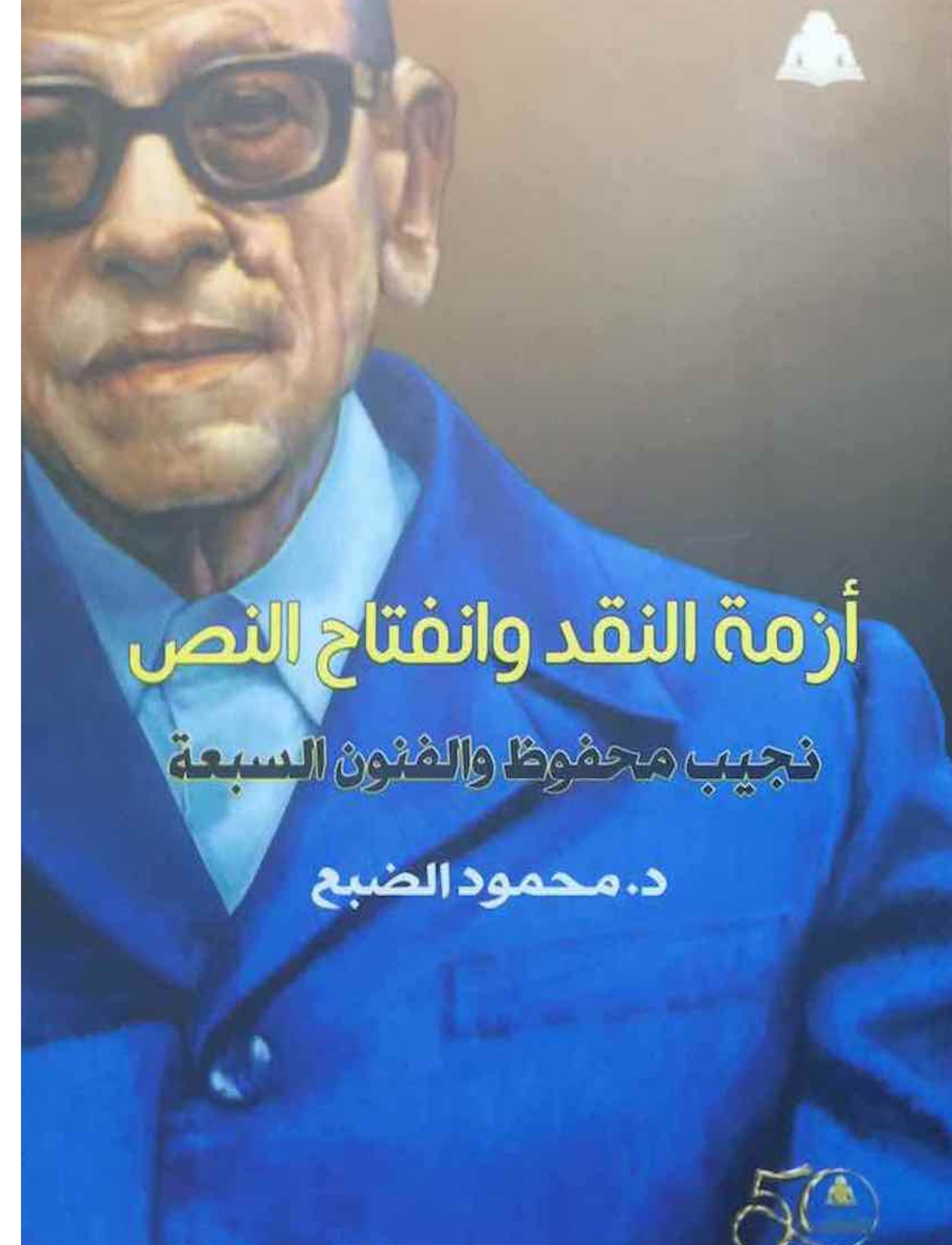


أزمة النقد وانفتاح النص

نجيب محفوظ والفنون السبعة

د. محمود الضبع

أزمة النقد وانفتاح النص

نجيب محفوظ والفنون السبعة



أزمة النقد وانفتاح النص

نجيب محفوظ والفنون السبعة

تأليف/ د. محمود الضبع

الطبعة الأولى: الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠١٩

ص.ب ٢٣٥ رمسيس
١١٩٤ كورنيش النيل - رملة بولاق القاهرة
الرمز البريدي: ١١٧٩٤
تليفون: ٢٥٧٧٥١٠٩ (٢٠٢) داخلي ١٤٩
فاكس: ٢٥٧٦٤٢٧٦ (٢٠٢)

GENERAL EGYPTIAN BOOK ORGANIZATION
P.O.Box: 235 Ramses.
1194 Cornich El Nil - Boulac - Cairo
P.C.: 11794
Tel.: +(202) 25775109 Ext. 149
Fax: +(202) 25764276

website: www.egyptianbook.org.eg
E-mail: ketabgebo@gmail.com
www.gebo.gov.eg

الطباعة والتنفيذ
مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

الإخراج الفني
عصام المرسي
التصحيح اللغوي
نادية سيد

الضبع، محمود إبراهيم، ١٩٧٠-
أزمة النقد وانفتاح النص: نجيب محفوظ والفنون السبعة/ محمود الضبع. - القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٩.
٢٣٢ص؛ ٢٤ سم.
تدمك ٥ ٢٢٢٠ ٩١ ٩٧٧ ٩٧٨
١ - الأدب العربي - تاريخ ونقد.
٢ - محفوظ، نجيب محفوظ عبد العزيز إبراهيم، ١٩١١ - ٢٠٠٦.
أ - العنوان.
رقم الإيداع بدار الكتب ٣٨٥٦/ ٢٠١٩
I. S. B. N 978 - 977 - 91 - 2220 - 5
ديوي ٨١٠,٩

أزمة النقد وانفتاح النص

نجيب محفوظ والفنون السبعة

د. محمود الضبع



الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠١٩

الإهداء

إلى:

- كل محب يدرك الإبداع، ويؤمن بالفكر والفكرة.

المحتويات

مقدمة

محيرة هي كتابة نجيب محفوظ، ندخل إليها بمنطق وفكر؛ فتفرض علينا منطقها وفكرها، ونرتكن إلى تأويل لرموزها ودلالاتها؛ فتفتح لنا أبوابا جديدة من التأويلات، نصنفها ونرسم حدودها واتجاهاتها؛ فتعيد علينا طرح رؤى جديدة للتصنيف والمداخل.

إن القراءة الكلية لأعمال نجيب محفوظ مجتمعة هي الأكثر حيرة، لأنها على الرغم من اقتصارها على نوع أدبي واحد هو السرد، إلا أنها متشابكة الأطراف مع الفنون السبعة (مثل المسرح والسينما والسيناريو والآداب والرسم والعمارة والموسيقى) ومع الحقول المعرفية العديدة التي تجلت عنها الفنون السبعة (الفلسفة والاجتماع وتاريخ الأديان والتراث والمعاصرة) وغيرها مما تتقاطع نصوص محفوظ الإبداعية معه، ولذا فإنه لا يمكن اعتماد مدخل وحيد لقراءة هذه الأعمال، أو حتى لقراءة العمل الواحد، وإنما تفرض الأعمال من داخلها تعدد المداخل وفتح الباب أمام القراءات وليس فقط تطبيق أدوات منهج نقدي بعينه، وبخاصة في ظل ما يشهده الواقع النقدي الآن.

فالنقد العربي المعاصر يعاني أزمة نتيجة انغلاقه وإغراقه في الأكاديمية، وابتعاده عن مواصلة القدرة على قراءة المشهد الأدبي الراهن، ووقوعه في فخ التبعية الغربية ومناهجها، التي انتهى وجودها بين منتجيها، واحتكامه لحدود

منهج مهما اتسـعت آفاقه فهي غريبة عن النص العربي، تنتمي إلى بيئة ثقافية لها مرجعياتها المختلفة كثيرا عن مرجعياتنا العربية وملامح هويتنا الثقافية (التي مهما ابتعدنا عنها إلا أنها كامنة في وعينا وحاضرة فينا).

من هنا كانت هذه القراءة من منظور حضـــور الفنون والآداب والحقول المعرفية والثقافات المتنوعة، ليس فقط في أعمال نجيب محفوظ وتحليل جمالياتها، وإنما أيضا للتطبيق على مدخل: "الاشتغال بثقافة النقد ونتاج درسه، وليس بتطبيق منهجه"، وهي محاولة لفتح بوابة قد نختبر مســـالكها في طريقنا للبحث عن مخرج لأزمة النقد العربي، وإعادة تواصـــله مع مجتمعات المعرفة وثورة الاتصـــال والمعلوماتية، وغيرها من الوســائط والآليات التي غدت تتحكم في الإنتاج المعرفي عموما، وفي الإنتاج الأدبي، وقراءته، وتلقيه، وأســـاليب تداوله كما يعيشها العالم من حولنا.

ولعل هذه القراءة (الثقافية) هي التي ستسمح بتوسيع أفق النقد العربي، ومن ثم عودته للتواصـــل مع الخطاب الثقافي المعاصـــر بأبعاده، وأجياله المتنوعة، وتعدد الأذواق العامة للاستقبال والتلقي.

أو تجعلنا نعيد النظر في قراءة نجيب محفوظ، وعدم حصـــره فقط في مراحل التقســـيم التاريخي والواقعي والفلســـفي، والخروج به إلى انفتاح النص، وتعدد القراءات، وتنوع المداخل، وتعدد الاتجاهات، وتداخل الفنون والآداب، والتفكير في ثقافته وليس في تخصصه وحسب.

لعل وعسى ...

د. محمود الضبع

القاهرة 2018م

الفصل الأول

أزمة النقد وانفتاح النص

(نجيب محفوظ والفنون السبعة)

التحولات العالمية في مفاهيم الإبداع والفكر والفلسفة:

طرأت على عالم المعرفة (إجمالا) تحولات ثقافية كثيرة، كان لها تأثيرات عدة على الثقافة العربية [1]، وامتدت هذه التأثيرات إلى مفاهيم الإبداع والفكر والفلسفة (الرؤية التي تحكم أفق المبدع)، ويمكن التدليل على ذلك بتحليل جماليات النص المعاصر (شعر، قصة، رواية، مسرح)، وقراءة تأثرها بآليات التداول المعاصرة، ومنظومات القيم المستحدثة (ومنها قيم السوق، ومعايير التكنولوجيا) بالتناص معها في محتوى الإبداع، أو تداخلها عبر آليات الإنتاج (استخدام القطع المتوازي مثلا في بناء النص السردي بوصفها تقنية مستمدة من السنيما، أو استخدام آليات العرض والإنتاج التكنولوجي في إنتاج النص السردي عبر الميديا)، وكذلك تأثرها بفلسفة العصر التي أقرتها المعلوماتية (السرعة، الخفة، الاختزال، الانتقال) مما أثر على مضامين الإبداع وأسس بنائه.

توارت موضوعات كثيرة كانت تحتل مساحة من الإبداع السردي والشعري (الحرمان من الحب، والقهر على الزواج، وديكتاتورية الأب...إلخ)، وأعيد تكييف

موضوعات (التاريخ، والأسطورة .. إلخ)، واستحدثت موضوعات (التكنولوجيا بوصفها موضوعا، والزومبي، والأفاتار، وما بعد الأفاتار... إلخ)، وبالتالي تأثرت أساليب وطرق الكتابة في الأنواع الأدبية، على مستوى طرق البناء، وأساليب استخدام اللغة، ومفاهيم الجمال بين الفلسفة والأدب، ومتطلبات النوع الأدبي وعناصره، ومخالفة أو مجادلة أو الاشتباك مع الوعي العام ووعي التلقي، وغيرها من تحولات يطول رصدها.

واتسعت فكرة استعارة التقنيات، ليس هنا بين الأنواع الأدبية وحسب، وإنما من فنون أخرى بعيدة تماما عن الأدب، مثل: نظريات الفيزياء في تحولها لسرد، وتقنيات الموسيقى، ومنجزات العلوم، وتداخل المعارف والآليات والأفكار في نسيج النص الأدبي.

ولعل التحول العالمي الأهم الذي يمكن رصده في الإبداع، أنه لم يعد ملكا للنخبة والجماعات النوعية فقط، وإنما اتسعت دوائره، سواء على مستوى التداول والتلقي الذي يطالع نصوصا أدبية عبر استخدام وسائل التواصل الاجتماعي وتصفح الإنترنت ومطالعة الشاشات المسطحة، أو على مستوى اتساع رقعة مبدعي وكتاب الأدب، وهو الأمر الذي ساعد عليه وجود المنتديات الأدبية، والمدونات الخاصة، ومواقع التواصل الاجتماعي، وسيولة النشر التي أتاحتها التكنولوجيا، مما شجع الكثيرين على الكتابة وإقامة المسابقات والتفاعل عبر المساهمات، إلى الدرجة التي دفعت البعض لتكوين دور نشر إلكترونية عبر الإنترنت، لا تهدف للربحية أو البيع، وإنما تهدف إلى نشر الأعمال الإبداعية للراغبين بعد تحكيمها من قبل الأعضاء المؤسسين، وإتاحتها للتداول.

ومع هذه التحولات إجمالا، لم يعد فعل الكتابة خالصا لمعايير ومقاييس الأدبية والنقد الأدبي بالكيفية المتعارف عليها، وإنما تغيرت طبيعة الكتابة، وظهرت أجيال متعددة قريبة العهد تمثل أذواقا متعددة، وتعتمد التجريب واليقين الفردي بديلا عن الانتماء إلى جماعة أو اتجاه أو جيل أو مؤسسة، وبالتالي انفتح

باب التجريب في الإبداع على مصراعيه، ولم تعد له حدود أو آفاق يمكنه التوقف عندها، وفي سياق ذلك لم يستطع النقد رصد أو تحليل هذه التحولات والوقوف عليها نظرا للصعوبات التي يعاني منها في العقود الأخيرة.

أزمة النقد وانفتاح النص:

يعاني النقد العربي عددا من الأزمات، بعضها يعود لعوامل داخلية تسبب هو فيها، وبعضها يعود لعوامل خارجية نتيجة ما طرأ على العالم من تغيرات بفعل التطور الطبيعي لمسار الحضارات.

وتعود العوامل الداخلية إلى: المنهج، والمصطلح، والنقد الصحفي، والنقد المجامل، والتخصص المحترف، في حين تعود العوامل الخارجية إلى: مجتمع المعرفة وأدواته، والمعلوماتية وحالة السيولة، والميديا واختلاف الوسيط، وانفتاح النص وانغلاق النقد.

ـ أولاـ العوامل الداخلية:

1. **أزمة المنهج**، حيث اعتمد النقد العربي على المناهج الغربية الواردة في تحليل النص، وتوارت شيئا فشيئا مصطلحات الأدب والبلاغة والنقد العربية، ولم يعد يتم استخدامها الآن إلا في أضيق الحدود ومن قبل فئة غير كثيرة من المتخصصين... وبغياب المصطلح يغيب المفهوم بالضرورة، وتغيب الحمولة الثقافية الكامنة وراءه، أما كيف حدث ذلك، ومن المسؤول؟، فيمكن تأمل وتحليل منجز النقد العربي منذ النصف الثاني من القرن العشرين وحتى لحظتنا الراهنة، وسيتبدى لنا واضحا أن المنهج الغربي غرر بالنقد العربي وأوقعه في التغريب، فانفصل عن النص وعن الواقع، ناهيك بالطبع عن تبعية هذه المناهج لفلسفات ونظريات اقتصادية وسياسية واجتماعية كانت تمثل توجهات في مجتمعاتها، وكانت ترجمتها للعربية تتأخر من الأساس لسنوات طويلة تتجاوز الخمسين أحيانا مما يعني أن الوعي بها في بلادها قد تجاوز الحدود.

2. **أزمة المصــطلح**، حيث يعاني المصــطلح العربي في كل العلوم فضــفضــة ومجـانيـة وعـدم اتفـاق (الضـــبط المنهجي)، وكـذا في الأدب والنقـد، فلا المصطلح العربي القديم يتم استخدامه الآن بضبطه الذي كان عليه قديما، ولا المصـــطلحات الغربية الواردة تم الاتفاق على ترجمة محددة ودقيقة لها، وتكفي الإشــارة إلى تعدد مصــطلحات: الشــعر الحر، والشــعر التفعيلي، والشــعر الجديد، والشـــعر المنثور.... إلخ للدلالـة على نوع واحـد من الشــعر،وهو الأمر المتكرر في معظم مصــطلحاتنا الأدبية، ناهيا بالطبع عن تعـدد أفهـامنــا حول (structure ,stylistic ,semantic) وغيرهــا من مصطلحات غائمة الدلالة في نقدنا قياسا إلى بيئاتها.

3. **النقد الصحفي**، وهي قضية قديمة أثارها طه حسين في مقالاته "لغو الصيف وجد الشـتاء" عام ١٩٣٣م، حيث أشـار حينها لرواج النقد الصـحفي الذي هو أقرب للترويج الإعلامي منه للقراءة النقدية، وعلى مدى ما يقرب من قرن من الزمان تزايدت هيمنة هذا النوع من النقد، وســـاعدته عوامل عدة على الانتشار، منها قرب لغته من لغة القارئ العام، وسرعة انتشاره، وربما أهمها هيمنة الميديا بفروعها (الصـــحافة، والإنترنت، واليوتيوب.. إلخ) على آليات الثقافة عموما، غير أن الاستسهال وعدم امتلاك الحد الأدنى من أدوات النقد، خلط بين القراءة النقدية والخبر الصحفي، مما زاد من أزمة النقد العربي.

4. **النقد المجامل**، وهو كثير في الثقافة العربية، ارتبط بالصـــحافة والإعلام والندوات الاحتفالية وحفلات التوقيع والمؤتمرات، وله علاقة قوية بالجوائز التي غدت معيارا للقراءة ولفت الانتباه، وهو ما جعل التلقي يعرض عن النقد المتعمق غير الشــفاهي وغير التداولي (الســماعي)، ويبدو أن غياب المعيار النقدي من الأساس كان له التأثير الأكبر في سريان هذا النوع من النقد.

5. **التخصــص المحترف**، حيـث وقع كثيرون في فخ تطبيق نموذج المنهج بحذافيره على النص الأدبي، مما اســتدعاهم لي عنق النص قســرا في بعض

الأحايين، فليست كل النصوص قابلة ـ مثلا ـ لأن يتم تحليلها بالمدخل البنيوي أو النفسي أو الأسلوبي، أو التفكيكي، أو بنموذج جينيت، أو فلاديمير بروب، أو غيرهم، وهو ما أساء إلى المنهج ومستخدميه المحترفين، وأساء إلى الدراسات الواعية التي حاولت تصحيح المسار.

ـ ثانيا ـ العوامل الخارجية:

1. مجتمع المعرفة وأدواته، والذي جعل المعرفة من أهم مكونات رأس المال في الاقتصاد المعاصر، وحلت السلعة والمنتج محل القيمة والمضمون، مما جعل الأدب خاضعا لمفهوم الإنتاج والتداول، وليس قيمة في ذاته، وبالتالي تحول النقد نوعا من أنواع المعرفة الواعية بمعطيات النص وإحالاته المرجعية إلى علوم الاقتصاد والسياسة والفلسفات الكبرى التي تعيشها المجتمعات التي أنتج فيها النص، وهنا وقع النقد العربي في مأزق التغريب، فلا هو ظل محافظا على المعنى والقيمة بالمفهوم العربي، ولا استطاع أن يقارب بين مفاهيم النقد الغربي المواكبة لبيئاتها الثقافية وبين النص العربي، الذي لم تتجاوز بيئاته الحداثة بعد (في حين تجاوز المجتمع الغربي ما بعد بعد الحداثة).
2. المعلوماتية وحالة السيولة، فقد أوجدت المعلوماتية أشكالا جديدة من الأدب، منها النص التشعبي، والنص الرقمي، والرواية الرقمية، والسيناريو غير المعتمد على نص أدبي، والأنيميشن، والأفلام القصيرة... إلخ، واكتسب الأدب جماليات جديدة ومجازات جديدة أوجدتها مصطلحات المعلوماتية، ومن جانب آخر حدثت سيولة في الإنتاج والتداول والانتقال، كما تنبأ بها إيتالو كالفينو[٢]، ونظرا لكون الوعي العربي مستهلكا لا منتجا في هذا السياق، فقد وضع النص الأدبي العربي في سياق المقارنة العالمية، وتغيرت معايير تلقي هذا النص، وتدخلت فيها عناصر الصورة والصوت والموسيقى والمالتيميديا، وبالتالي تغيرت آليات قراءة ونقد النصوص الأدبية، وتشكل وعيان، أحدهما يرفض الاعتراف بهذه المعلوماتية ويتعامل مع النصوص

بالوعي النقدي السـائد الممتد من منتصف القرن الماضي (ويكاد ينعدم متلقوه)، وثانيهما يحاول استيعاب عالم المعلوماتية وإنتاجيته، ويحاول قراءة النصوص بها (وهو اتجاه لم يتأسس على نحو واضح في الوعي العربي)، وكلاهما يعاني من أزمة في النقد.

3. **الميديا واختلاف الوسيط،** فلم يعد النص الأدبي وسيطه فقط عبر الكتاب المطبوع، وإنما أضيفت إليه وسائط أخرى كثيرة وبخاصة ما يتعلق منها بالمالتيميديا (الصوت والصورة والحركة واللون...إلخ)، والنص الرقمي، وغيرها مما أوجدته التكنولوجيا والشاشات المسطحة، وبالتالي نشأت أجيال من الكتاب الذين لم يعد يعنيهم نشر النص الأدبي عبر الكتاب المطبوع ورقيا، وإن طبع فلا يتم الاكتفاء به وسيطا، وإنما غدت الوسائط التي وفرتها التكنولوجيا هي البديل الأوفر والأسرع في التداول، وخلقت هذه الوسائط نقدها ولغته بعيدة عن عالم النقد العربي، الذي انحصر في المؤسسات التعليمية والجامعية (النقد الأكاديمي بصيغه الكلاسيكية).
4. **انفتاح النص وانغلاق النقد،** حيث تضافرت العوامل السابقة جميعا في إثراء النص الأدبي (على مستوى المضمون والمحتوى والإشارات والدوال، وعلى مستوى آليات التداول)، وهو ما أدى لانفتاح النص على حقول معرفية قريبة الصلة بالأدب وأخرى بعيدة تماما، وتحرر الأدب من قيود المحرمات الثلاث (الدين والجنس والسياسة)، وانفتحت آفاق التجريب على مصراعيها (غدا كل أديب يرى في نفسه مؤسسة فردية)، في حين انغلق النقد العربي على مدارسه ومناهجه وأدواته وطرق تداوله، مما أوقعه في أزمة الانفصال والمحدودية التي يعاني منها الآن.

مداخل قراءة النص العربي:

حدثت تحولات نوعية غير مرئية في الوعي العربي، وفي العقلية العربية على مستويات عدة، نتيجة اعتماد الخطاب الثقافي الغربي في كل المجالات: الفكر

والسياسة والفن والمناهج، وهذه هي التي تتم بها قراءة المشهد المحيط اجتماعيا وحضاريا، ومن ذلك مناهج النقد الأدبي، تلك التي تقدم قراءتها عن نصوص عبرت عن الواقع الاجتماعي وترصد لحركات المجتمع وتحولاته ناهيا عن مكونات هويته وجماليات التلقي التي يحيا بها، غير أن التطبيق الحرفي للوارد يسقط هوية النص، ولا يراعي اختلاف بيئة الكاتب العربي عن الغربي عن الأسيوي عن الإفريقي (مثل نجيب محفوظ، الذي تعد أعماله تشريحا للواقع المصري، والحارة المصرية، وحاملة لهوية وملامح المجتمع المصري إجمالا).

تحولت العقلية النقدية العربية إلى قراءة النص العربي بعقلية غربية (منهج نقدي غربي، نظرية في الفن، أو الاجتماع، أو السياسة، أو الفكر عموما)، وشيئا فشيئا انزوت مفاهيم تراثنا النقدية، مما جعل البعض من كبار نقاد العربية لايجد مخرجا سوى تبرير ذلك بأن "النظريات العلمية هي نتاج بشرى وملك للتطور، وليس للعلم هوية، وإنما العلم تراكم، واستخدام نظرية أو منهج فكري غربي هو تواصل واتصال ومواكبة للتحضر، وليس بالضرورة بحثنا عن منهج عربي أو ملامح هوية عربية" (٣).

قد تمثل هذه الرؤية مدخلا للتفكير في واقعنا النقدي العربي، غير أنها ليست وجهة النظر الوحيدة التي يمكن الاعتماد عليها، وإنما هناك وجهة نظر مضادة تنطلق من التفكير بمنطق إعادة بناء تراثنا واختزاله واختصاره أولا، ثم فتح الأفق على الأطروحات الجديدة للباحثين العرب ممن استطاعوا استيعاب المشهد بالكيفية التي تم طرحها سابقا، وربما تتمكن هذه الأطروحات الجديدة أن تستثمر مدخل القراءة الثقافية للأدب السائد الآن، والذي سيسمح لنا بدمج تراثنا في وعينا النقدي بما تسمح به آليات النص وإمكانات قراءته.

وإن كانت وجهة النظر الأخيرة في حاجة إلى جهد أكبر، وعمليات قد تبدو من الخارج معقدة، غير أنها في الحقيقة ستعيد رسم أدوار جديدة للنقد، في تجاوزه مجرد تحليل النص الأدبي إلى تحليل التراث وإعادة بنائه في سياق القراءة

الثقافية التي يقوم بها، والتي قد تحيل نصـــوصـــها إلى هذا التراث، وقد لا نكون حالمين إذا افترضـــنا أنها ســتعمل على تكوين عقلية ناقدة مبدعة وليســت عقلية تعتمد تطبيق طريقة محددة سلفا أو منهجا أو أداة متداولة، مثلما يحدث من تطبيق لاســتراتيجية جينيت في قراءة النصــوص، وما تفترضـــه مبدئيا من انتفاء حكم القيمة.

القراءة الثقافية وعي بالنص:

بالفعل فإن القراءة الثقافية لديها الحساسية الأعلى بالنص الأدبي العربي، لأنها اختبار للنص في ظل إنتاج أفق ثقافية متنوعة، وهي في الآن ذاته قراءة للمشهد الثقافي وليس فقط للنص، وفي أطر متنوعة وليس في سياق واحد، مع إحداث الترابط بين هذه الأطر لإنتاج ثقافي جديد.

وعليه فإن النقد الثقافي لا يجب أن يكون قراءة متوازية، وإنما قراءات متقاطعة، ونقطة تقاطعها هي النص ذاته، فهو المنطلق بوصفه المحتوي للروافد الثقافية، وهو المنتهى بوصفه قمة الإنتاج الثقافي.

إن النص الأدبي في نهاية الأمر هو مقولات تلتقي على نحو أو آخر بمقولات النظريات والفلسفات ومجمل النتاج الفكري الإنساني السابق الذي تم اختزاله في عقل المبدع منتج النص، وهذا الاختزال يتم إعادة إنتاجه عبر دوال اشتملها النص، وفي الآن ذاته لابد من قراءته في سياق التحولات العالمية التي أثرت على بيئة التلقي، وتأثيره هو فيها، وهنا من المهم أن تكون دراسة النصوص الأدبية منطلقة من هذا الوعي بهدف الوقوف على تقاطعات الثقافة بين النص وبين وفنون العرض مثلا، أو بينها وبين نظريات الفيزياء الحديثة (فيزياء الكم)، أو بينها وبين منجزات التكنولوجيا، والعلوم البينية، وعلوم الاقتصاد والسياسة وغيرها من التأثيرات العالمية في مجال المعرفة وتطورها، وهو ما سيؤدي في نهاية الأمر لفهم تأثيرات النص على التلقي وقدرته على إعادة الإنتاج ثقافيا وجماليا.

فكما كان يقال قديما الرجل هو الأســـلوب، فإنه يمكن اليوم توســـيع مفهوم الأسـلوب ليتجاوز حدود الأسـلوب اللغوي في دراســة كيفية اسـتخدام اللغة، إلى دراسة ما سبق والإضافة إليه بدراسة أسلوب الخطاب الثقافي إجمالا، وتأثير هذا الخطاب على المبدع، وعلى النص (أبنيته ودواله الثقافية)، وعلى التلقي (تأثير خطاب النص على المتلقي).

وفي هذا السياق يأتي السؤال أولا حول تأثر المبدع بالخطاب الثقافي السابق عليه، والذي تشكلت خبراته في إطار اختبار مفاهيمه وعناصره:

فما الذي يتبقى من النظرية أو الفلســـفة أو التيار بعد أن ينزوي تيارها أو يتراجع للوراء مفسحا المجال لتيار جديد؟

في حقيقة الأمر فإن ما يتبقى هو المقولات بعد أن يتم تفكيك النظرية، أي أن النظرية يتم اختزالها إلى جملة من المقولات، وهذه المقولات هي التي تتقاطع عبر النص الأدبي ليس بمقولها تحديدا، وإنما بما تعبر عنه وما تحيل إليه.

- الشكلانية، مثلا، ماذا يتبقى منها غير النظام العلمي للأدب (نظرية الأدب)؟

- والبنيوية، ماذا يتبقى منها غير مقولات الدال والمدلول، وثنائية اللغة والمعنى؟.

- والأسلوبية، ماذا يتبقى منها غير العلاقة بين المعنى ومعنى المعنى؟

وغيرها من مناهج ومداخل النقد الأدبي، والنظريات الفلسفية، والاقتصادية، والسـياسـية، والاجتماعية...، تلك التي تفككت جميعا ولم يتبق منها سـوى مفاهيم ومقولات يتم الاتكاء عليها في القراءة النقدية.

ربما يكون ذلك أدعى لأن نفكر من هذا المنظور في واقعنا النقدي، ونلجأ للقراءة الثقافية لتعيدنا إلى نقد عربي لا يبتعد عن التطور العالمي، ولا يغفل الهوية العربية وأبعادها ووجوهها، ذلك أن هويتنا ليســـت نمطا واحدا، وإنما هي أنماط متعددة، وهويات فرعية تتشابه على نحو ما، وتتفرد في أنحاء كثيرة، وهذا التفرد هو ما توليه المعلوماتية الاهتمام، باعتباره هوية نوعية لا يمكن إغفالها.

القراءة الثقافية والمثاقفة:

النص الأدبي هو نتاج تلاقح ثقافي، بين منتجه والروافد الثقافية التي أسهمت في هذا النتاج، إذ لا يمكن وجود نص في الفراغ دون أن تكون له خلفيات مرجعية يؤول بعضها إلى المنتج الثقافي الذي تمكنت البشرية من إنجازه عبر تاريخها والمختزن في عقل الكاتب حتى زمنه (التراكم المعرفي والتراثي القديم والحديث)، ويؤول بعضها إلى وعي منتج النص وتأثير هذه الروافد فيه تبعا لطبيعة الموضوع الأدبي وغاياته، سواء أكانت هذه الغايات مرتبطة بتوجه ينتمي إلى مدرسة أو جماعة، أم لليقين الفردي ووعيه، ويؤول بعضها إلى النتاج السابق للمبدع، وهو ما يتضمن في نهاية الأمر إحالات مرجعية يمكن بشكل أو بآخر تتبعها للكشف عن الروافد الثقافية لمبدع النص وآليات تفكيره، وقناعاته، وروافده المعرفية، ووعيه بالمفاهيم التي يقدمها النص أو يجادلها، وتأثيره فيها وتأثره بها.

وعلى مستوى التلقي، فإن النص الأدبي – أيضا – هو نتاج علاقة تلاقح بين النص وبيئات التلقي التي يتم استقبال النص فيها، إذا إن تفسير دوال النص وإمكانات التواصل معه ستظل مرهونة بالروافد الثقافية لبيئة التلقي والوعي الناتج عن التأثر بها، أي ثقافة مجتمع التلقي، والخطابات الثقافية السائدة في عصره.

من هنا يمكن رصد المثاقفة في الأدب، بوصفها التأثيرات المتبادلة:

- أـ التي يحدثها الآخر، ويتفاعل معها المبدع سواء باستلهام الأفكار على نحو جزئي في النص، أو بالتقاطع معها معرفيا، أو باقتباس مقولها، أو أحداثها على نحو ما أسس له التناص.

- ب ـ والتأثيرات التي يحدثها المبدع في بيئة التلقي عن طريق النص.

وتختلف المثاقفة عن التناص في أن التناص يرصد حضور الآخر في الأنا ورصد جمالياته، في حين توسع المثاقفة المفهوم لتتضمن آليات التناص، وتجاورها

بما هو غيرها من أدب مقارن، ونقد ثقافي، ونقد حضاري بما أسسه هؤلاء من رصد لجماليات التلاقح الثقافي فيما نسميه **"المثاقفة"**.

وتختلف المثاقفة عن النقد الأدبي، في كون الأخير يتبنى منهجا أو مدخلا له خطوات وإجراءات وأدوات، وسواء تم تطبيقها حرفيا، أم كانت الدراسة النقدية انتقائية في استخدامها لأدوات المنهج، فإنها في النهاية تلتزم بحدود إطار معرفي واحد (هو ما تحدده النظرية النقدية مثل التاريخانية، أو البنيوية الاجتماعية، أو المنهج النفسي....إلخ)، في حين توسع المثاقفة من قراءتها لتشمل النقد الأدبي وتضيف إليه التواصل مع حقول معرفية تضمنها النص أو حمل دوال تحيل إليها (فيزياء، موسيقى، نظريات في السياسة والفن والاجتماع، علوم بينية...إلخ).

وتختلف المثاقفة عن الأدب المقارن، في كون الأدب المقارن باتجاهيه - الفرنسي والأمريكي- يشترط وجود نصين مختلفين أحدهما قديم والآخر معاصر، وتشترط – كذلك - حد اختلاف اللغة بين النصين، والتشابه الموضوعي بينهما، في حين يوسع مفهوم المثاقفة من حدود الأدب المقارن، ويسمح بالبحث في نصين متجاورين متعاصرين متزامنين متفقي اللغة أو مختلفتين، متشابهين في الموضوع أم غير متشابهين، لأن البنية الثقافية وتقاطعاتها هنا هي الحاكمة، وليست طبيعة أو بنية الموضوع الأدبي.

فمثلا يمكن دراسة نصين روائيين أحدهما عالج موضوع الجريمة، والثاني كان عن الخيال العلمي، وكلاهما استخدم سفينة فضاء مكانا للأحداث، فسفينة الفضاء هنا ستستحضر بالضرورة معرفة عن الفضاء ومفاهيم الجاذبية (ثقافة الفضاء وأدواته) وبالتالي فإن دراسة آليات بناء النص الروائي وأحداثه متشابهة لأنها تحتكم لبنية معرفية واحدة، وإن كان الموضوع الروائي سيختلف، فإذا أعيد إنتاج هاتين الروايتين في فيلمين سينمائيين، فإن مداخل قراءة العملين سوف تتعدد، لأنها ستدرس أبنية النص وتأثيراتها، وكذلك تأثيرات أبنية الفيلم من إضاءة وموسيقى وحركة كاميرا وترتيب مشاهد، ويمكن التدليل بفيلم "البين نجمي"

Interstiller الذي اعتمد على نظرية علمية ونص سردي تمت كتابته أكثر من مرة، فقراءة ذلك نقديا ستستدعي القراءة الثقافية متعددة المداخل بالضرورة، وهو ما يجعلها تتجاوز مجرد التناص، والأدب المقارن، والنقد الفني، والتحليل باستخدام منهج نقدي، والنقد الأدبي إجمالا.

كذلك يمكن دراسة التقاطعات الثقافية لكاتب واحد عبر أعماله السابقة، أو عبر تقاطعات مع كتاب آخرين، ليس بمفهوم التناص، وإنما بمفهوم الحضور الثقافي.

بهذا المعنى تصبح المثاقفة هي دراسة التقاطعات الثقافية التي أحال إليها النص من آليات بناء إلى جماليات تلقي إلى دوال ثقافية تحيل إلى السياسي أو الفكري أو الديني أو الاجتماعي أو الفلسفي أو الاقتصادي، أو غيرها مما يشكل البنية المعرفية بمفاهيمها الحاصلة من حولنا.

من الأحادية إلى التعدد:

نظرا لاتساع حجم المعرفة وسرعة تداولها، وسيادة عصر المعلوماتية، وبالتالي اتساع رقعة الخطاب الثقافي وتعدد آلياته، ونظرا لأن المبدع هو نتاج هذا التحول في مفاهيم وطرق تداول المعرفة، لذا كان من الطبيعي أن تحمل النصوص الأدبية ملامح هذه التحولات، وهنا بالضرورة ستتعدد قراءات النص، ولا يلغي أحدها أحدا، مما سيثري النص بمداخل متعددة، ووجهات نظر متعددة، وليس مدخلا واحدا، فكما صارت الحياة متشابكة المعارف، كذلك سيكون النص متشابك العلاقات، وبالتالي متعدد القراءات.

لم يعد منهج واحد هو القادر على إعطاء مصداقية للنص في القراءة المعاصرة، وإنما تعدد المداخل ربما سيكون هو الحل لأزمة النقد العربي الحالية، ليس فقط على النصوص المنتجة في الألفية الثالثة، وإنما على النصوص المنتجة في القرن الماضي، لأن التحولات العالمية التي نناقشها هنا ليست وليدة اليوم فقط، وإنما بداياتها تعود للنصف الثاني من القرن الماضي، وإن كان الانفتاح